

ورنت الزهراء إلى أم المؤمنين بالصمت والابتسام، فلما ألحت عليها
عائشة بالسؤال، قالت فاطمة:

- ما كنت لأفشى كلاماً أسره إلى رسول الله.

ومن يدري فلعل محمداً وهو يلقي في سمعها تلك الكلمة الخفية المكتومة
كان يكر في خياله ماضى فاطمة، وتفتتح له على الذكرى أيام طفولتها بين
يدى أمها، فتعيد هذه الصور في نفسه أنسا بها وتلهفا عليها، وكانت حياة
فاطمة في ذلك الماضى الذى يتصوره الرسول حافلة بأعز الذكريات.

وفى ليلة مولدها قبل النبوة بخمس سنين! لقد ملأت مكة بهجة ومرحاً،
فرجعت تحت سمائها غناء وترتيلاً أصواتها الندايا الرخيمات، فرحاً بميلاد
فاطمة، لكأن خديجة فى تلك الذكرى قامت عن خير نساء العالم، وها هو ذا
محمد مكب على المولودة وهى صغرى بناته يشم من عنقها ریح آمنة بنت وهب،
ويستشف ستار الغيب، فيرى من خلفه شجرة فرعاء، يبهج القلب ثمرها، ثم لا
يلبث قطافها أن يجرحه فى شغافه.

وشبت فاطمة بين أمومة كريمة غرست فى نفسها الطاهرة الفضيلة والحنان،
وبين أمومة رحيمة أودعت قلبها الزكاء والإيمان، وإذ بمحمد يبرها ويؤثرها،
فيغضب لغضبها ويرضى لرضاها.

وتخطو الزهراء فى زهوة العمر وعلى طلعتها مثل نور أبيها، ويسرى فى
مكة صيت جمالها وفطنتها، وسماحة خلقها وطبعها، فتاقت إلى خطبتها قلوب
الصيد من مهاجرى قريش، ولا يكاد الأنصار وعهدهم بالرسول جديداً. يقدمون
على طلب هذه الدرّة الغالية حتى يتوسل أبو بكر إلى رسول الله ويخطب منه
فاطمة لنفسه، فى سانحة مؤاتية، ولكن الرسول تبسم وأحس الإشفاق على
صاحبه، ولبث صامتاً مطرقاً، ثم انفرجت شفتاه عن قول معروف وجواب فيه
الأدب والرفق والحصافة.